الدرس السابع عشر :

ذكرى غزوة بدر

يوم الفرقان :

نعيش اليوم في رحاب سيرة رسول الله ﷺ ، وسيرته جزء من سُنته ، نعيش اليوم في رحاب ذكرى عاطرة . . . ذكرى غزوة بدر الكبرى ، تلك الغزوة التى احتفل بها الله ، واحتفل بها رسوله ، واحتفل بها المسلمون ، واحتفل الله بها فسمَّى يومها : يوم الفرقان ، إنه يوم فرَّق الله فيه بين الحقِّ والباطل ، وبين الإسلام والجاهلية ، وبين التوحيد والشرك ، وأنزل في شأنها سورة الأنفال .

مكانة البدريين :

احتفل بها رسول الله ﷺ ، فقال في رجل من أهل بدر - هو حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه - ارتكب جناية من الجنايات الكبيرة . . . قال ، وقد استأذنه عمر أن يضرب عنقه لأنه نافق ... فقال : « ما يدريكم ، لعلَّ الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فإني قد غفرتُ لكم »[1].

واحتفل المسلمون بأصحاب بدر . . . فكان الرجل الذي شهد هذه المعركة له مكانة في أنفسهم ، يُسمَّى بدريًّا . . . وكان فلان بدريًّا . . . بل كان يقال : كان أبوه بدريًّا وكان جده بدريًّا .

أي إنَّ بركة هذه الغزوة ، ظلَّت في ذرِّيته من بعده ، مفخرة يفخر بها ، تلك هي الغزوة ، التى أعزَّ الله فيها الإسلام ، ونصر الحق . . .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٩٤)، كما رواه أحمد (٦٠٠)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٥٠)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٣٠٥).

انتصار المسلمين :

في يوم السابع عشر من رمضان ، في السنة الثانية من الهجرة . . . انتصر فيها المسلمون وهم قِلَّة في العَدَد ، وقِلة في العُدَد ، على أعدائهم الذين جاءوا بقضِّهم وقضيضهم من مكة . خرجوا منها بَطَرًا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله .

وكان المسلمون قد خرجوا للقاء العِير ، وهي (قافلة تجارية) قادمة من الشام يقودها أبو سفيان ، وفيها سلع وأشياء قيمتها نحو خمسين ألف دينار ، وهي مؤلَّفة من حوالي ألف بعير . . . كانت تحمل تجارةً لقريش . . . قريش التى استضعفت المسلمين بمكة ، ومنعت كثيرًا منهم أن يُهاجروا ويلحقوا بإخوانهم في المدينة ، وصادرت ما للمسلمين من أموال في مكة ، استولت عليها ظُلمًا وعُدوانًا .

تأديب قريش :

أراد النبي ﷺ أن يُؤدِّب قريشًا في عِيرها وفي تجارتها ، وأن يضربها ضربة اقتصادية مُفاجئة ، عسى أن يُفيقوا من سكرتهم ، وعسى أن يكون في ذلك بعض التعويض لما أصاب المسلمين من خسائر .

هكذا أراد النبي ﷺ ، وأراد أصحابه معه ، وخرجوا للقاء العير ، وكان الرجال الذين يحرسون العير ويصحبونها أربعين رجلاً ، فهو لقاء سهل لين لا شوكة فيه ، ولن يكون فيه حرب تُذكر ، ولكن الله سبحانه وتعالى كان هو الذي يُدبِّر هذه المعركة .

يد الله تدبِّر المعركة :

كان الله هو الذي دبَّر هذه المعركة ، هو الذي هيَّأ زمانها ، ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ ، وهيَّأ مكانها . . . هناك في بدر . . . حيث المسلمون بالعُدوة الدنيا ، والمشركون بالعُدوة القصوى : ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ (الأنفال: ٤٢).

الله الذي هيَّأ هذه المعركة ، وهيَّأ مكانها وزمانها ، وهو الذي يقودها من وراء المسلمين . . . كانت يده سبحانه ، هي التي تُدير رَحَاها ، وإلا ما كان هذا العدد القليل ، الذي جاء على غير استعداد ، وعلى غير أُهبة ، ليستطيع أن يقف أمام جيش جرَّار خرج من مكة للحرب ، خرج مُستعدًا مهيَّأ بأسلحته وعتاده .

بين جيش المشركين وجيش المسلمين :

خرجوا بطرًا ورئاء الناس . . . كان معهم مائة فارس ، وكان المسلمون ليس معهم إلا فارسان (الزبير والمقداد) ، وكان الفرس في ذلك الحين بمنزلة المُصفَّحة أو الدبابة في عصرنا .

وكان المسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، وكان المشركون حوالي الألف .

كانت ركائب المسلمين قليلة ، فكان كل ثلاثة يتعاقبون بعيرًا واحدًا ، كل واحد يركبه مرحلة . وكان زاد المسلمين قليلاً ، كانوا يأكلون التمر ، والمشركون يذبحون كل يوم عشرة نياق أو تسعة ، ولذا كان من دعاء الرسول لهم : «اللهم إنهم جياع فأشبعهم ، عالة فأغنهم ، حفاة فاحملهم !»[1].

حتى أن موقع المسلمين لم يكن بالموقع الحسن ، فقد كان الموقع رمليا يثور منه الغبار ، فصنع الله للمسلمين شيئًا بالنسبة لهذا الموقع ، كان موقعهم مُتربًا ، وكان المسلمون عطاشًا ، وأصاب بعضهم جنابة ، ووسوس إليهم الشيطان . . .

المطر من جند الله عز وجل في هذه المعركة :

حلَّ الله هذه المُشكلات كلها بمطر أنزله ، لبَّد الأرض الرمليَّة من تحت أرجلهم ، وشرب منهم وارتوى مَن كان عطشانًا ، وسقى دابَّته مَن أراد ، وحمل في قربته مَن كان معه قِربة .

وهكذا يقول الله تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ (الأنفال: ١١).

---

(١) رواه أبو داود في الجهاد (٢٧٤٧) ، والحاكم (٢/١٤٥) وصحَّحه على شرطهما ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الكبرى (٦/٣٠٥) ، كلاهما في قسم الفيء ، عن عبد الله بن عمرو ، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٨٦) .

الملائكة جند السماء :

ثم شيء آخر . . . كان المطر من جند الله عز وجل في المعركة ، وكان هناك جند السماء ، الملائكة ، أنزلهم الله تعالى بعد أن استغاث الرسول وأصحابه ، بالله ، بربهم : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (الأنفال:٩).

طلب النصر من الله عز وجل :

كان النبي ﷺ ، يستغيث بربه ويدعوه ، ويُلحُّ عليه ، حتى سقط الرداء عن منكبه ، ويقول : «اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض بعد اليوم ، اللهم نصرك الذي وعدت»[1]، إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض بعد اليوم ؛ لأنه لا دين بعد الإسلام ، ولا رسول بعد محمد ، ولا كتاب بعد القرآن .

لا بد إذن من طلب النصر ، فمصير الأديان ، ومصير عبادة الله وتوحيده يتقرَّر في هذه المعركة .

استغاث رسول الله وأصحابه ، فنزل النصر : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (الأنفال:٩).

نزل جند السماء :﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (الأنفال:١٢).

رميُ المشركين بحفنة من تراب :

وخرج النبي ﷺ يُحمِّس أصحابه ، ويشدُّ أزرهم ، ويستحثُّ همهم ، ويقول في شأن المشركين : «سيُهزم الجمع ويولون الدبر»[2]، ثم يرمي في وجوه المشركين

---

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٦٣) ، وأحمد (٢٠٨) ، والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٨١) ، عن عمر بن الخطاب .

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩١٥) ، وأحمد (٣٠٤٢) ، عن ابن عباس .

بحَفنة من تراب في يده ، فلم يبق مُشرك إلا ملأ التراب عينيه وأنفه وفمه[1]، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون .

ترى . . . هل كانت هذه رميةُ بشر؟ أم رميةٌ من ورائها قوة القضاء والقدر؟ إنها رمية من ورائها يد الله عز وجل ، ومن هنا يقول الله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال:١٧).

إن الله سبحانه وتعالى كان يُدبِّر هذه المعركة ويُديرها ويقودها . . . هو الذي أنزل المطر . . . هو الذي أنزل الملائكة . . . هو الذي هيَّأ للمسلمين كل هذه الأسباب .

انتصار القلة المؤمنة :

وانتصرت القِلَّة على الكثرة . . . انتصر المسلمون على المشركين . . . رغم قِلَّة عدد المسلمين ، ولكن هذه القِلة كانت قِلة مؤمنة ، لم تُبالِ بشيءٍ في سبيل الله ، قال لهم النبي ﷺ : « قوموا إلى جنَّة عرضها السموات والأرض »[2]، فسمع ذلك رجل من الأنصار اسمه عُمير بن الحُمام ، فقال : يا رسول الله ، ما بيني وبين الجنة؟ قال : « أن تتقدم فتقاتل فيقتلك هؤلاء » . فقال : وكان في يده تمرات يلوكها ، فرماها من فمه . . . من يده . . . وقال: أأعيش حتى آكل هذه التمرات، إنها لحياة طويلة . . . ورماها وظل يقاتل ويقول :

ركضًا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد ... وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد[3]

---

(١) رواه الطيالسي (١٣٧١) ، عن أبي عبد الرحمن الفهري .
(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠١) ، وأحمد (١٢٣٩٨) ، عن أنس .
(٣) تاريخ الطبري (٣٣/٢) ، وأصل القصة في الصحيح .

سأل النبي ﷺ ، ذات مرة أصحابه : « أتدرون ما الذي يضحك الرب من عبده؟ أن يلقى العدو حاسرًا . . . لا درع عليه ، ولا مِجنَّ »[1].

هنالك خلع بعض الصحابة درعه ومِجنَّه وخاض المعركة حاسرًا ، ليُري هؤلاء الكفرة أن المسلم لا يُبالي بالموت في سبيل الله ، حتى قال أحد المشركين في وصف المسلمين : (إنها البلايا ، تحمل المنايا)[2].

هكذا كان المسلمون . . . ولا عجب أن انتصروا على عدوهم رغم الظواهر المادية التي ربما تُوحي لبعض الناس ، أن النصر مع الكثرة المُستعدَّة المُتحمِّسة ، التي خرجت تملأ رؤوسها العصبية للأصنام ، والانتصار للعِير والقافلة والتجارة .

ولكن رأينا رسول الله ﷺ ، ورأينا المسلمين معه ، رأيناهم أحق بالنصر ؛ لأنهم نصروا الله ، ومَن نصر الله كان جديرًا بأن ينصره الله ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ (محمد:٧).

لقد نصروا الله وحده ، ما نصروا أحدًا .

الله ورسوله أحب إليهم من أهليهم :

كان أحدُهم يُقاتل . أباه ، حتى قتل أبو عبيدة أباه[3]، وأراد أبو بكر أن يقاتل ابنه ، وكان الرجل من المسلمين يقاتل أخاه مثل : مصعب بن عمير في صفوف

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في الجهاد (١٩٨٤٨) ، والبيهقي في الكبرى كتاب السير (٩٩/٩) ، عن عمر بن قتادة .

(٢) قال عمير بن وهب يصف جيش المسلمين للكفار : لا مدد لهم ولا كمين ، القوم ثلاثمائة إن زادوا زادوا قليلاً ، ومعهم سبعون بعيراً وفرسان ، يا معشر قريش ، البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، أما ترونهم خرسًا لا يتكلمون ، يتلمظون تلمظ الأفاعي ، والله ما أرى أن نقتل منهم رجلاً حتى يقتل منا رجل ، فإذا أصابوا منكم عددهم فما خير في العيش بعد ذلك ، فَرَوْا رأيكم . انظر : طبقات ابن سعد (١٦/٢) ، والبداية والنهاية (٢٦٩/٣) .

(٣) جعل أبو أبي عبيدة يتصدَّى لابنه أبي عبيدة يوم بدر ، فجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله ، فأنزل الله عز وجل فيه هذه الآية حين قتل أباه : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ (المجادلة:٢٢) إلى آخر الآية . رواه الطبراني في الكبير (١٥٤/١) ، وأبو نعيم في الحلية (١٠١/١) ، والبيهقي في الكبرى كتاب السير (٢٧/٩) .

المسلمين ، وأخوه أبو عزيز في صفوف المشركين ، وحينما أَسَره أحدُ الأنصار قال له مصعب : اشْدُد يدَك عليه ، فإنَّ أمه ذات مال كثير ، وستكفيك بما تريد . فقال له أبو عزيز : هذه وصاتك بي ، يا أخي؟ فقال له : إنه اليوم أخي دونك[1].

إنها أخوّة الإيمان . . . إنها العقيدة . . . إنه التجرُّد لله . . . فلا عجب أن ينتصر هؤلاء .

فيا أيها الذين آمنوا : خذوا العبرة من بدر . . . خذوا العبرة من هذه الغزوة . . . وانصروا الله ينصركم الله ، ويثبت أقدامكم . . . ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ ﴾ (آل عمران: ١٦٠).

* * *

(١) انظر : سيرة ابن هشام (١٩٦/٣) ، والبداية والنهاية (٣٠٧/٣) .